النوم يستعصي عليّ. أترك الفراش وأفتح النافذة على مصراعَيها. مركز الشرطة مفتوح في مثل تلك الساعة المتأخرة من الليل. ألاحظ وأنا أثبّت بَصري عليه أنّهم غيّروا طريقة الإضاءة في المدخل، فقد كان الضّوء قويًا إلى درجة أنّه باستطاعتي أن أرى بوضوح ملصقًا يمثّل شعار حزب "التجمّع الدّستوريّ الديموقراطيّ" الحاكم على لوح إعلانات ضخم لا تفصله عن المبنى سوى بضعة أمتار.

حيّ البساتين غارق في صمت الليل. شارع أبي القاسم الشابي وكلّ الشوارع الصغيرة المتفرّعة عنه مقفرة. حتّى السيارات التي كنتُ أسمع هديرها بين الفينة والأخرى قبل أن أفتح النافذة اختفت. أتّكىء على إفريز النافذه وأشرع في تأمّل النجوم الصغيرة المتناثرة في أرجاء السماء الصافية.

بغتةً يتناهى إلى سمعي من إحدى شقق العمارة صوت نافذة تُفتح. أنحني وأمدّ رأسي فأراها. كان الضوء المتسرّب من مركز الشرطة كافيًا لكَي أتأكّد من أنّها هي. نعيمة المطلّقة المحجّبة. إلاّ أن ما يفاجئني حقًا أنّها غير محجّبة هذه المرّة.

إنّها المرّة الأولى التي أرى فيها شعرها. كان طويلاً ينسدل على كتفيها. كان يبدو لي على ضوء مركز الشرطة ناعمًا رقيقًا أملس، وأجمل بكثير ممّا كنتُ أتصوّر، خصوصًا أنّها كانت ترتدي فستانًا ينسجم لونه البرتقاليّ مع لون شعرها الأسود الفاحم.

لا أدري إن كانت قد فطنَت إلى أنّي أرقبها. أحدّق في شعرها طويلاً. ثمّ أزداد انحناءً وأتنحنح. ترفع رأسها على الفور. وعندما تراني تتراجع بسرعة وتغلق نافذتها. يعتريني قليل من الاضطراب فأغلق بدَوري النافذة وأطفىء الضوء كما لو أنّي أريد أن أحتمي بالظلام وأتستّر به على ما فعلت. أبقى للحظة واقفًا وسط الغرفة. ثمّ أتمدّد على الفراش.

وحالما أسند رأسي إلى الوسادة تحاصرني التساؤلات من كلّ جهة. تُرى بماذا شعرَت لمّا رأتني؟ وهل اضطربَت مثلي؟ هل انزعجت وانفعلَت أم ساوَرها إحساس من نوع آخر؟ ولكن قبل كلّ شيء هل عرفتني؟ صحيح أنّها شاهدتني مصادفةً قبل يومين مع إبراهيم ووائل في الدرج لما فتح فجأة باب شقتها، ولكن لا شيء يُثبت أنها رأتني جيدًا فقد أغلقت الباب بسرعة. إن شاهدتني بما فيه الكفاية وعرفتني فمن المؤكّد أنّها تذكّرت أنها التقت بي قبل خمسة أعوام في شقّة أخي وأنّ يُسرى طردتها أمامي من البيت لما اقتنعت بأنّها امرأة فاسدة كما كنت أقول لها.

أحاول أن أحرر ذهني من كلّ هذه الأسئلة لكنّي لا أستطيع. أكثر من هذا أجدني أترك الفراش من جديد مدفوعًا برغبة لا تقاوَم وأتوجه إلى النافذة لأفتحها مرة أخرى. أندهش حين أراها. كانت تتكىء على إفريز النافذة كما في المرة السابقة. لكن رأسها كان مائلا قليلا هذه المرة بحيث يمكنني رؤية جزء من وجهها. أما شعرها فقد لمّته وأسدلته على الجانب الأيسر كاشفة بذلك عن أكثر ما يمكن من وجهها وجيدِها. أنتبه أيضا إلى أن غرفتها لم تكن مظلمة وأن هناك ضوءا خفيفا ينبعث منها.

لا يخامرني عندئذ أدني شك في أنها عرفتني. بل ويُخيّل إليّ أنّها عادَت إلى النافذة عمدًا لكَي أراها من جديد، وخصوصا لكي أرى شعرها الجميل الذي كانت تخفيه تحت الحجاب. إلا أن ما يسترعي اهتمامي هو أن لا شيء إلى حد الآن في تصرفاتها يدلّ على أنها تحقد عليّ مثلما كنتُ أتصوّر. ولأوّل مرة ينتابني قليل من الندم على ما فعلت بل وأشعر بقليل من التعاطف معها.

يسرح خيالي بعيدًا وأفكّر في أمر ما كان ليخطر ببالي قبل لحظات قليلة. أمر ولّد فيّ مزيجًا من الخجل والاحتقار لنفسي. إذا وسوست لي النفس الأمّارة بالسوء وجمحت شهوتي في يوم من الأيّام فباستطاعتي أن التجىء إليها خصوصًا أنّ ما رأيته منها إلى حدّ الآن يشجّع المرء على أن يحاول معها على الأقلّ.

نعم. نعيمة الفاسدة. نعيمة المطلّقة المحجّبة قد تقدّم لي في وقت ما من الفترة التي سأقضيها في تونس مساعدة لم أكن أحلم بها إن توفّرت الشروط الملائمة بالطبع، وكنتُ على يقين من أنّ الأمر سيبقى سرًا بيني وبينها.. إنّها مفاجأة سارّة حقًا!..

ليس هناك في النهاية ما هو أفضل في مثل هذه المسائل الحساسة من أن تسكن في العمارة نفسها التي تقيم بها امرأة من نوع نعيمة. كلّ ما في الأمر هو أن تحرص على أن يتمّ ذلك بعيدًا عن أعين الفضوليّين وهي كثيرة في مثل هذه الأحياء.

مرّة أخرى أتنحنح لأرى ردّة فعلها. لا تبدر منها أيّ حركة. تظلّ على حالها كما لو أنّها لو تسمع شيئًا. إنّها تعرف الآن أنّي فوقها فأزداد تأكّدًا ممّا بدا لي لمّا رأيتها مصادفةً في الدرج، وهو أنّها سمنت وأنّ بشرتها صارت أكثر بياضًا. تبدو لي أيضًا أجمل وأكثر إثارةً من قبل. أمّا آثار التقدّم في العمر فهي لا تُرى. بالعكس يُخيّل إليّ وأنا أنظر إليها من فوق أنّها أصغر من سنّها التي لا تتجاوز الأربعين. لعلّ تخلّيها عن الحجاب الّذي مكّنني من أن أراها على هذه الهيئة للمرّة الأولى هو الذي أوحى لي بكلّ ذلك.

هل أكلّمها؟ لكن ماذا بوسعي أن أقول لامرأة مثلها الآن؟ ثمّ ماذا لو سمعني إبراهيم أو يُسرى واكتشفا أنّي أتلصص على نعيمة. والأخطر من ذلك أتحدّث إليها في مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل؟ إنّي واثق من أنّ من المستبعد حدوث هذا، فقد أويا إلى فراشهما منذ وقت طويل ولا شكّ أنّهما يغطّان في النوم الآن. ثمّ إن نافذة غرفتهما المتاخمة لغرفتي لا تفتح على الشمال مثل نافذتي والنافذة التي توجد فيها نعيمة، بل على الشرق. لكن لا بدّ من التزام الحذر في مثل هذه الأمور.

أترك النافذة وأذرع الغرفة جيئة وذهابًا، في محاولة للسيطرة على اضطرابي. أشعر بالعطش فأتوجّه إلى المطبخ على أطراف أصابعي لكَي لا أحدث أيّ ضجيج. أشرب حتى أرتوي. أبلّل جبيني بالماء البارد. ثمّ أعود إلى غرفتي. في تلك اللحظة أفكّر في أمر لم يخطر ببالي على الإطلاق. ماذا لو كانت نعيمة قد صمّمت على أن تنتقم لنفسها منّي وأنّ كلّما تفعله الآن يندرج ضمن خطّة جهنميّة لاستدراجي إلى الفضيحة؟ ماذا لو كانت تنصب لي بتصرّفها المفاجىء هذا فخًّا محكمًا للتشفّي ممّا قلته عنها ليُسرى؟

من الممكن أيضًا، وإن كنتُ أستبعد هذا، أنّها لم تيأس منّي تماماً وأنّها لا تزال تمنّي النفس بأن أتزوّجها، فالغاية من هذا التصرّف قد لا تكون الانتقام وإنّما إثارتي وتهييجي لأتعلّق بها وأقع في فخّ فتنتها. لعلّها استنتجت من النحنحة التي أطلقتها منذ حين ومن التلصّص عليها أنّي أهتمّ بها.م تكن نعيمة هناك.

أتقدّم من النافذة. وأنظر إلى الأسفل. أزداد انحناء فأكتشف أنّها أغلقت النافذة. حتى الضوء الحفيف الذي كان ينبعث من غرفتها تلاشى. أتأمّل من جديد السماء بنجومها اللامعة. ثمّ ألقي نظرة على مركز الشرط الذي لا يزال مفتوحًا وأغلق نافذتي وأعود إلى الفراش.

ولم تكد تمضي بضع دقائق حتى أحسست بحركة في الممر أمام باب غرفتي الموصد. أرفع رأسي وأرهف السمع.

بعد برهة أسمع صوتًا. أشعل الضوء فأرى مقبض الباب يتحرّك. أنهض وأفتحه فإذا بي أرى وائل. يبتسم لي وهو يفرك عينيه:

* ماذا تفعل هنا؟
* -كنتُ في المرحاض..
* ولماذا لم ترجع إلى فراشك؟
* شفت الضوء.. في بيتك..
* أيّ ضوء؟.. بيتي ما كان في ضوء قبل أن أحسّ بك وراء الباب.
* كان ثمّة ضوء..

أدرك عندئذ أنّه على حقّ وأنّ الضوء الذي يتحدّث عنه هو ما كان يتسلّل من ضوء مركز الشرطة القويّ إلى غرفتي من خلال النافذة التي لم تكن ستارتها مسدلة. آمره بأن يعود إلى فراشه. يُمسك بيدي ويترجّاني أن أسمح له بالبقاء معي في انتظار أن يراوده النعاس من جديد. يشعّ وجهه الصغير فرحًا حين أوافق. يندفع إلى الفراش ويستلقي عليه. أتمدّد بجواره. بعد برهة وفيما كنتُ أفكّر في نعيمة يسألني:

-جامع فرانسا كبير؟

- آ..

-كبير.. مثل جامعنا؟

-آ..

-صومعته عليه؟

- إيه.

- ونظيف مثل جامعنا؟

- آ..

-وفيه إمام؟

-إيه..

-مثل إمامنا؟

-آ..

-عنده لحية بيضاء؟

-إيه..

-ويحفظ كلّ القرآن؟

-أيه..

يلتصق بي ويسند رأسه إلى صدري.

-المعلّم في المدرسة قال لنا إنّ الذي لا يصلّي كافر..

-تعرف ما معنى كافر؟

-الكافر هو الذي لا يحبّ ربّي..

يرفع رأسه ويحدّق فيّ. كان واضحًا أنّه ينتظر منّي رأيًا أو ملاحظة أو تعليقًا على كلامه. لكنّي ألتزم الصمت.

-المعلّم قال لنا إنّ الفرنسيس واليهود كفّار..

بعد صمت طويل يضيف:

-قلتُ له عمّي يعيش في فرانسا.. ويصلّي في جامع فرانسا.. قلتُ له أيضًا امرأة عمّي كاترين فرنساويّة.. ولكن ما هي كافرة.. لأنها تحبّ عمّي وتحبّ بابا وماما.. وتحبّني أنا.

حين يعود إلى فراشه أسدل ستارة النافذة وأطفىء الضوء.أحاول أن أطرد صورة نعيمة من ذهني. بيد أنّي لا أفلح في ذلك. أستعيد كل ما حدث منذ حين. ثمّ أشرع في تذكّر المرّات التي شاهدتها فيها خلال زيارتي، بحثًا عن حركة أو إشارة أو نظرة أو أيّ شيء من هذا القبيل يمكنه أن يساعدني على تفسير ما شاهدته في هذه الليلة. أظلّ أتنقّل من ذكرى إلى أخرى حتى يغلبني النعاس.

في صباح اليوم التالي، حالما أستيقظ، أهرع إلى النافذة. أفتحها وأنحني قليلا متطلّعًا في حذر إلى نافذة نعيمة. كانت موصدة . أغادر الغرفة. أغتسل بسرعة ثمّ أتوجّه إلى المطبخ وقد عقدت العزم على أن أحدّث يسرى عمّا شاهدته في الليلة الماضية. وهذا ما فعلت أثناء تناول الفطور. كانت يسرى منهمكة في غسل أواني الطعام. تتوقف عن العمل وتجلس قبالتي.

* رأيتها بالصدفة.. النوم هرب من عينيّ.. لا أدري لماذا.. لمّا قلقت قمتُ من الفراش.. فتحت النافذة ونظرت إلى تحت..
* فرأيتها..

تهزّ يسرى كتفيها. أواصل بعد قليل:

- الغريب أنّها ما كانت محجّبة..

تسوّي خصلة طويلة من شعرها أفلتت من الحجاب الذي لم تحكم وضعه. تبتسم ابتسامة خفيفة وهي تتطلّع إليّ ثمّ تقول بصوت هادىء:

* من وقت طويل تركت الحجاب.. وكشفت عن حقيقتها.. إنها امرأة ساقطة.. كانت تكذب على الناس.. لكنّ ربّي سبحانه فضحها..
* -وما زالت تضع كاسيت الدعاء في المسجلة؟
* لا.. منذ أن تركت الحجاب وعرّت شعرها ما عاد ثمّة لا دعاء.. ولا ابتهالات.. قلت لك إنّها كذّابة.. كلّ تديّنها كان كذبًا في كذب..

أدرك أن يسرى تتيح لي، دون أن تدري، فرصة رائعة للحصول على أكثر ما يمكن من المعلومات عن نعيمة. بعد تردّد أسألها:

-عندها أولاد؟

-لا.. إنها عاقر.. لهذا طلّقها زوجها..

-وتسكن وحدها الآن؟

-لا.. تسكن معها عجوز..

-أمّها؟

- هي تقول إنّها أمّها.. لكن أنا ما عدت أصدّقها.. صرتُ أشكّ في كلّ شيء تقوله..

-إذا ما كانت أمّها فمَن تكون؟

-لا أدري..

- يمكن تكون عمّتها.. أو خالتها..

لا تقول يُسرى شيئًا. أشعر برغبة قويّة في أن أطرح عليها أسئلة أخرى. بيدَ أنّي لا أفعل خوفًا من أن تنتبه إلى أنّي أهتمّ بنعيمة أكثر من اللازم.